الأشباح (١)

Fantômes

لفكتور هوجو

ترجمة السيد فؤاد نور الدين

— ١ —

واحسرتاه ! ما أكثر ما رأيت من عادات هصرتهن يد المنون !
هذه سنة القدر ! الفريسة ينتظرها الهلاك ،
والعشب تنتظره المناجل المشحوذة الفاطمة ،
والزهور توطأ تحت أقدام الراقصين الناعمين فى الحفلات ،
والماء ينفد من وديانه ، والبرق لا يومض إلا قليلاً ،
وأبريل (٢) الحسود يحرق بصقيعه أشجار التفاح المزهوة ذات الأزاهير الفواحة ، التى تتساقط كأنها ثلج الربيع .
نعم ، هذه سنة الحياة . يعقب الليلُ الشاحب النهارَ الضاحك .
وتعقب اليقظةُ كل شىء ، إما فى النعيم وإما فى الجحيم .
ويأنف المدعوون الجشعون حولَ المائدة الكبيرة ،
إلا أن كثيراً منهم يهجرونها قبل نهاية الطعام

— ٢ —

ما أكثر ما رأيت من غادات تموت ! إحداهن وردية اللون بيضاء البشرة ؛ وأخرى كأنها لم تنصت إلا للألحان السماوية ؛ وأخرى ناحلة قد أسندت جبينها المحنيّ على ذراعها ؛ ثم فارقتها الروح كما يفارق العصفورُ غصن الدَّوْح وفنن الروض
إحداهن شاحبة ضالة ، استولى عليها الهذيان فما تنطق إلا اسما لا يذكره أحد ، وثانية تغني كما يغنى النشيد على الأوتار ، وثالثة كانت تحتفظ بابتسامة الملاك الجميل الرحيم ، لما لفظت نفسها الأخير
فما أشبههن جميعاً بالزهور المرتجفة التى أعجلها القدر إلى الموت !
وبالطيور الحائمة التى غمرتها الأمواه مع أعشاشها الطافية !
وبالحائم الوديعة اللطيفة التى وهبها الله العالم !
فواأسفى عليهن ! طواهن الثرى فى غياهبه ، وما قضين بعدُ من العمر لبانة !

(١) نقلت عن كتاب Oeuvres choisies illustrées (V. hugo.)
(٢) نيسان

* * *

دعونى أتيه فى ظلمات الغاب الدامسة ، وأطأ بأقدامى أوراق الشجر اليابسة ، فأما لا أصدق أن جميع هؤلاء الفتيات الساحرات قد متن ، وذوت نضرتهن وخمدت أصواتهن ؛ ولا أكاد أصدق أن هذه المشاعل البراقة قد خبت أنوارها ، وتلك الورود الزاهية قد هصرت أعوادها
ما نفسى إلا أخت لهذه الطيوف الجميلة ، أما الحياة والموت فلا يفصلهما فاصل ولا قانون
فأنا طوراً أساعد خطواتهن وطوراً آخذ أجنحتهن فأموت مثلهن أو يعشن مثلى فى رُؤى عجيبة لا توصف
وتلبس أفكارى أشكالهن وصورهن ويخاطبنني قائلات : تعال !
ثم يتراقصن متشابكات مترابطات حول رءوسهن
ويتوارين عن عيانى بهوادة ، لا يخلفن لى غير الحلم والذكرى

— ٣ —

إنما أذكر منهن واحدة اسبانية : ملاك غض الصبى ؛ أبيض اليدين . قد رفعت النهدين وعقدتهما زفرات بريئة . العين حوراء تلمع فيها نظرات فتنة وسحر
والجمال مجهول أمره ، هذا الجمال الذى يتوج بهالة من النور والضياء جبين من بلغت الخامس عشر ربيعاً .
لم يقض الحب عليها ، فالحب لم تخطر بعدُ لذائذه ومعاركه فى فؤادها العاصى بالرغم من هتاف الناس عند سرورها : ما أجملها ! كانت تهوى الرقص وهذا الرقص قضى عليها
فرفاتها لا يزال يرتعش رعشة الهدوء والسكون كلما رقصت حول كوكب السماء فى الليلة المصحية غيمة بيضاء
كانت تعشق الرقص أشد العشق ، وكانت تظل قبل كل حفلة ثلاثة أيام ولياليها تفكر فيه وترى من أجله أحلاماً زاهية ، وترى نسوة وعازفين وراقصين كلهم يحفون بها
وترى الحلى اللامعة ، والعقود الساطعة ، وهذه النسائج الرقيقة الناعمة ، وتلك النفائس البراقة المتلألئة ، وهذه الشرائط الخفيفة التى تشبه أجنحة النحل اللطيفة : كلها وزهور وورود كانت تملأ فى الحلم عينيها وتسحر نفسها

* * *

فاذا كانت الحفلة ، ألفيتها لاهية ضاحكة مع رفيقاتها ، تقبل حيناً وتدبر حيناً فى المحافل الحريرية

والمروحة بين أصابعها تضغط عليها والألحان المرحة تنتشر من حنجرتها

فتوافقت الموسيقى الصادحة ونغمات البيانة السابحة

لله ما أبهج النفس التي تتمتع برؤية هذه الكاعب ترقص وتزهو !

ثوبها يهتز بنجومه المتلألئـــة اللازوردية ، وعيناها السوداوان النجلاوان تلمعان تحت خمارها الحريري الرقيق لمعان نجمتين تضيئان على جبين الليل من خلف سحابة مظلمة

كل ما كان يكمن فيها كان رقصاً ضحوكا ومرحاً متوثباً.

ما أشبهها بالطفل ! — كنا نبتهج بالنظر إليها في دعتنا الكئيبة ؛ لأن القلب لا يجد متعة في الرقص فحسب ، فالرماد يعلو حول الألسنة الحريرية

والسأم يظهر وسط اللذائذ السماوية

***

أما هي فكان الرقص يهيجها ويثيرها ، وكانت تحلق — وهي تنوى بنفحات القيثارة الفخور — في فضاء من الحبور ، وفي جو من السرور

وكانت الزهور الجميلة ، ومصابيح الذهب المتوهجة ، وجلبة الأصوات المرتفعة ، وضجيج الخطوات المنتقلة ، تسمو بها وتلذها

ما أسعدها وهي تثب وسط الجمع ، كأن مشاعرها تضاعفت وازدادت ونمت !

فلا تدري حينذاك أتندحرج خلال السحب ، أم تصطاد خلال الغاب ، أم تطأ بأقدامها أمواج البحار ؟

***

وا حسرتاه ! إذا ما قرب انبثاق الفجر وجبت العودة إلى القصر

وهنا تضطر الراقصة الساذجة إلى الوقوف على عتبة الباب منتظرة المعطف

وهنا تحس وهي ترتجف أن نسيم الصباح الندى يلامس كتفها العاري الفضي

فيعقب الغدُ الحزين واليوم الكئيب ليلة الرقص الهائجة !

وداعاً أيتها الرقصات الصبيانية ، وداعاً أيتها الزينة ؟

أيتها الحفلات الجميلة ، أيتها الأغاني العذبة ، واللذائذ الحلوة ، والعيون المشرقة !

فلقد خلفتكن جميعاً عيونٌ منطفئة ، وأدواء معضلة

— ٤ —

ماتت فتاتنا — وما جاوزت ربيع الخامسة عشرة من عمرها !

ماتت في وفرة شبابها ، وروعة جمالها ، بين نظرات تعبدها ، وعيون تقدسها

ماتت على أثر خروجها من حفلة راقصة ، فتفتتت أكبادنا حسرة عليها ؛ ولبسنا لباس الحداد من أجلها

ماتت وا أسفاه ! بين ذراعي أم ضاع صوابها وغاب رشادها ، لم يرحمها الموت فانتزعها انتزاعاً بيديه الباردتين لكي يضمها في القبر ، وهي ما تزال في أهبة لحضور حفلات تالية

لله ما أسرع الموت في اختطاف تماثيل الجمال !

أما تلك الزهور التي كانت تزين بالأمس رأسها ، وتتفتح أكمامها على صدرها ، فلقد ذبلت في الرمس ، قبل أن تنشد فتاتنا نشيد الهوى والعرس

— ٥ —

وارحمة لأمها التاعسة ! إنها تجهل حظها العاثر

تلك الأم التي أضمرت لابنتها من الحب والحنان شيئاً عظيماً ؛

ألم ترع طفولتها الشاكية الحزينة ؟

ألم تقض لياليها ساهرة تهدهد لها المهد لتغفو وتنام ؟

رحماك رب ! لم يفدها ذلك .

فالفتاة ماتت ، وهي ترقد الآن في تابوتها القاتم شاحبة اللون ، كاسفة الوجه ، فريسة للحشرات والديدان

***

فاذا ما أيقظتها في ليـــلة جميلة من ليالي الشتاء حفلة خاصة بالموتى ، تقدم إليها — ليتولى أمر زينتها — شبح رهيب ذو ضحكة مروعة

فيقول لها : هلمي حان وقت الرقص !

ويطبع على شفتها البنفسجية قبلة باردة جليدية ، ويمر أصابعه العقداء ، أصابع هيكل عظمي ، على خصلات شعرها الطويلة المتموجة ، ثم يسوقها مرتجفة مهتزة ، إلى الرقص النادب المشؤوم ، إلى تلك الموسيقى الجوية المتصاعدة في الظلام ، حيث يكون القمر في الأفق القاتم شاحباً عريضاً ، وقوس قزح مصبوغاً

(البقية في أسفل الصفحة التالية)